

مقدمة الطبعة السابعة

بقلم : العلامة يوسف القرضاوي

الحمد لله وكفى ، وسلام على رسله الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى ،
محمد وآله مصاييح الدجى ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ فَاقْتَدَى وَاهْتَدَى .

(أما بعد)

فهذا كتابي (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) ، اخترتُ له هذه التسمية ،
رعاية لما ينشده الإسلام في علاقاته بغير المسلمين ، فلا ينبغي أن نخاطبهم باسم
الكفار ، فالتخاطب ينبغي له أن نبث عن الأسماء اللطيفة التي يتقبلها الناس
بعضهم من بعض .

ولذلك ناداهم القرآن بأسماء شتى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، ﴿يَبْنَىٰ آدَمَ﴾ ،
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ، ونحو ذلك من العبارات المحببة ما أمكن ذلك .

ولذلك رأيتُ أن خير ما ينادى به مَنْ ليس بمسلم من أهل الديانات الأخرى ،
من الكتائبين أو الوثنيين ، أو ممن لا ينتمي إلى ديانة قط ، من المتحررين من كلِّ
دين عرفه الناس : أن نسميهم بهذا الاسم (غير المسلمين) . وقد أعجبت هذه
التسمية كثيراً من العلماء والدعاة والباحثين ، وأحمد الله على ذلك حمداً كثيراً .

كما أن هذه التسمية نَهَتْ بعض المسلمين إلى بحث آخر يكمل هذا البحث ،
هو (المسلمون في غير المجتمع الإسلامي) . فهذا ما سألني عنه من قديم بعض
الإخوة الهنود الذين يعملون في أمريكا ، وقالوا : أنت بحثتَ عن (غير المسلمين
في المجتمع الإسلامي) ، وما يلزمنا نحوهم ، وما لهم من حقوق ، وما عليهم من
واجبات . . . إلى آخره . ولكن بقي علينا أن نعرف : ماذا على المسلمين الذين
يعيشون في مجتمع غير إسلامي ، وربما كانوا عدداً قليلاً ، وربما كانوا عشرات
الملايين ، مثل المسلمين في المجتمع الهندي . فقد يبلغ المسلمون فيه نحو مائتي
مليون مسلم ، وهو التجمع الثاني للمسلمين في العالم من ناحية العدد ، بعد أن إن

قُسِّمَت باكستان الإسلامية الأولى من شرقية وغربية إلى دولتين : دولة باكستان على الجانب الغربي ، ودولة بنجلاديش ، على المنطقة الشرقية . فأصبح البلد الأول والأكبر الآن هو إندونيسيا ، وفيها التجمع الإسلامي الأكبر ، والتجمع الثاني للمسلمين في الهند .

ومن هنا ظهرت فكرة (الأقليات الإسلامية) في العالم وحقوقها وواجباتها . وهذه الأقليات تمثل نحو ثلث المسلمين في العالم شرقه وغربه . وقد أنشأنا للأقليات مع الإخوة في أوروبا (المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث) ، الذي يضم مجموعة من العلماء الذين يعيشون في أوروبا ، ويشرفون على مراكزها ومساجدها وأمورها الدينية ، ومعهم عدد من إخوانهم الذين يعيشون في الشرق ، ولكنهم غير منقطعين عن الغرب ، وكنت من هؤلاء ، حتى اختارني الإخوة رئيسا لهذا المركز المرموق .

وكان لهذا المركز بحوثه وفتاواه وكتبه ومراجعته ، التي كان لها دورها وأثرها في دعم المسلمين في الغرب ، والسعي في إنقاذهم ، والأخذ بأيديهم في طريق الفهم الصحيح ، والقصد الراشد لهذا الدين العظيم . وما زال المركز يعمل ويبحث ويجتهد ، مهتديا بهدى الله تعالى ، وهدى رسوله الكريم ﷺ ، وأصحابه الطاهرين الميامين ومن اتبعهم بإحسان .

ويسرني أن أقدم هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، بعد قراءتها ، ومراجعتها ، وتخرج أحاديثها وآثارها ، وتوثيق نقولها ، وقد أضفت إليها مبحثا جديدا عن (علاقة المسلمين مع الوثنيات الشرقية - الهندوسية والبوذية) اقتباسا من كتابنا أو قل : موسوعتنا (فقه الجهاد) ، مع زيادات أخرى في مواضع مختلفة .

نسأل الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين على الهدى ، وقلوبهم على التقى ، وأنفسهم على المحبة ، ونياتهم على التعاون ، وعقولهم على العلم النافع ، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل ، وأن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى . آمين .

الفقيه إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

١٨ من محرم ١٤٣٤هـ

الموافق : ٢ ديسمبر ٢٠١٢م

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

حمداً لله ، وصلاةً وسلاماً على رسل الله ، وعلى خاتمهم وصفوتهم محمد ابن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه ، إلى يوم الدين .
أما بعد . .

فقد ابتلي المسلمون في الزمن الأخير باستعمار كافر فاجر ، سلخهم من شخصيتهم التاريخية ، وفرض عليهم بالقوة أولاً ، وبالحيلة أخيراً - حياة غير حياتهم ، لأنها مبنية على مفاهيم غير إسلامية ، وتشريعات غير إسلامية ، وتقاليد غير إسلامية ، إنما هي مفاهيم المستعمر وتشريعاته وتقاليده .

فكما حمل هذا المستعمر الدخيل عصاه ورحل من بلاد المسلمين وتحررت أوطانهم من نيره ، وأصبحوا يملكون أمر أنفسهم ، تعالت صيحات المؤمنين منادية بالعودة إلى الإسلام من جديد ، واستئناف حياة إسلامية سليمة متكاملة ، حياة توجهها عقيدة الإسلام ، وتحكمها شريعة الإسلام ، وتضبطها أخلاق الإسلام ، وتسودها مفاهيم الإسلام ، وتقاليده الإسلام ، حتى يعيشوا مسلمين كما أمرهم الله ، وارتضى لهم ، واختاروا لأنفسهم .

ولما لم يبق هناك عذر لمعتذر بسيطرة المستعمر ، أو بنفوذ الأجنبي ، اخترع بعض الناس تَعَلَّةً أُخرى يتعللون بها ، وهي : وجود أقليات غير إسلامية ، تعيش بين ظهرائي المسلمين ، ولا تدين بدينهم .

كأن الرجوع إلى الإسلام ، والحكم بشريعة القرآن ، جور على هؤلاء المواطنين من غير المسلمين ، أو إلغاء لشخصيتهم الدينية ، والتاريخية .

وكأنهم لم يعيشوا قرونًا متطاولة في ظل حكم الإسلام ، ناعمين بالأمان وبالعدل ، الذي ينعم بهما المسلمون أنفسهم ، ولو مسهم ظلم يومًا ، لمس المسلمين معهم ، وربما قبلهم .

ومن العجب أن بعض الناس اجترءوا على التاريخ فزيّفوه ، وقوّلوه ما لم يقل ، واجترءوا على النصوص فحرفوها عن موضعها ، محاولين بهذا وذاك أن يشوهوا التسامح الإسلامي الذي لم تعرف البشريّة له نظيراً في معاملة المخالفين في العقيدة والفكرة ، لا في القديم ولا في الحديث .

لهذا رأيت أن أقدم هذا البحث لطلاب الحقيقة ، من مسلمين وغير مسلمين ، وهو بحث أساسه العلم والفكر ، ومحوره الفقه والتاريخ ، وهدفه البناء لا الهدم ، والتوحيد لا التفريق .

وفيه نتبين - معتمدين على أوثق المصادر وأقوى الأدلة - الوضع الشرعي لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، من جهة ما لهم من حقوق ، كفلها الإسلام ، وما لهذه الحقوق من ضمانات ، وما عليهم إزاءها من واجبات ، وما أثير حول هذه الواجبات من شبهات . وكيف عاش هؤلاء الذين منحهم الإسلام ذمة الله وذمة رسوله وذمة جماعة المسلمين ، طوال العصور الماضية ، وخصوصاً العصور الذهبية الأولى ، مقارنةً ذلك بما صنّعه الأديان الأخرى ، وما تصنّعه العقائد والأيديولوجيات الثورية المعاصرة بمخالفاتها .

فعسى أن يكون في هذه الصحائف ما يعين على تجلية وجه الحق في هذه القضية ، ويزيح عنها ضباب التشويه والتشكيك ، ويعرضها صافية نقية ، بعيدة عن تحامل المتحاملين ، أو تعصب المتعصبين ، وخصوصاً في هذا الوقت الذي ترتفع فيه الأصوات بالدعوة إلى «السلام الاجتماعي» و«الوحدة الوطنية» في مواجهة أصوات أخرى تدعو إلى «الصراع الطبقي» أو «الحقد الطائفي» .

والله أسأل أن يشرح الصدور للحق ، وأن ينور القلوب بالحب ، وأن يهدي العقول بنور المعرفة واليقين . . إنه سميع مجيب .

الفقير إلى ربه

يوسف القرضاوي

علم السِّيَاق في المجتمع الإسلامي

تمهيد

● المجتمع المسلم مجتمع عقيدة وفكرة :

المجتمع الإسلامي مجتمع يقوم على عقيدة وفكرة «أيديولوجية» خاصة . منها تنبثق نظمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه . هذه العقيدة أو الفكرة «الأيديولوجية» هي الإسلام وهذا هو معنى تسميته «المجتمع الإسلامي» فهو مجتمع اتخذ الإسلام منهجاً لحياته ودستوراً لحكمه ، ومصدراً لتشريعهِ وتوجيههِ في كل شؤون الحياة وعلاقاتها ، فردية واجتماعية ، مادية ومعنوية ، محلية ودولية .

ولكن ليس معنى هذا أن المجتمع المسلم يحكم بالفناء على جميع العناصر التي تعيش في داخله وهي تدين بدين آخر غير الإسلام .

كلا . . إنه يقيم العلاقة بين أبنائه المسلمين وبين مواطنيهم من غير المسلمين على أسس وطيدة من التسامح والعدالة والبر والرحمة ، وهي أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام ، وقد عاشت قروناً بعد الإسلام ، وهي تقاسي الويل من فقدانها ، ولا تزال إلى اليوم ، تتطلع إلى تحقيقها في المجتمعات الحديثة ، فلا تكاد تصل إليها في مجتمع ما ، وفي وقت ما ، إلا غلب عليها الهوى والعصبية ، وضيق الأفق والأنانية ، وجرتها إلى صراع دام مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الجنس أو اللون .

● دستور العلاقة مع غير المسلمين :

وأساس هذه العلاقة مع غير المسلمين قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ

نَحِبُ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٩﴾
(المتحنة: ٨، ٩).

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعاً ، ولو كانوا كفاراً بدينه ، ما لم يقفوا في وجهه ويحاربوا دعائه ، ويضطهدوا أهله .

ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة في المعاملة والتشريع . والمراد بأهل الكتاب : مَنْ قام دينهم في الأصل على كتاب سماوي ، وإن حُرِّف وبُدِّل بعد ، كاليهود والنصارى الذين قام دينهم على التوراة والإنجيل .

فالقرآن ينهى عن مجادلتهم في دينهم إلا بالحسنى ، حتى لا يوغر المرء الصدور ، ويوقد الجدل واللدن نار العصبية والبغضاء في القلوب ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾
(العنكبوت: ٤٦).

ويبيح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب ، والأكل من ذبائحهم ، كما أباح مصاهرتهم والتزوج من نسائهم المحصنات العفيفات ، مع ما قرره القرآن من قيام الحياة الزوجية على المودة والرحمة في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١).

وهذا في الواقع تسامح كبير من الإسلام ، حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته ، وشريكة حياته ، وأم أولاده ، غير مسلمة ، وأن يكون أحوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين .

قال تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة: ٥).

وهذا الحكم في أهل الكتاب وإن كانوا في غير دار الإسلام ، أما المواطنون المقيمون في دار الإسلام ، فلهم منزلة ومعاملة خاصة ، وهؤلاء هم « أهل الذمة » .
فما حقيقتهم ؟

● أهل الذمة :

جرى العرف الإسلامي على تسمية المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي باسم « أهل الذمة » أو « الذميين » .

و« الذمة » كلمة معناها : العهد والضمان والأمان . وإنما سموا بذلك ؛ لأن لهم عهد الله وعهد الرسول ، وعهد جماعة المسلمين : أن يعيشوا في حماية الإسلام ، وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين ، فهم في أمان المسلمين وضمانهم ، بناء على « عقد الذمة » بينهم وبين أهل الإسلام . فهذه الذمة تعطي أهلها « من غير المسلمين » ما يشبه في عصرنا « الجنسية » السياسية التي تعطيها الدولة لرعاياها ، فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم .

فالذمي على هذا الأساس من « أهل دار الإسلام » كما يعبر الفقهاء^(١) أو من حاملي « الجنسية الإسلامية » كما يعبر المعاصرون^(٢) .

وعقد الذمة عقد مؤبد ، يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم ، وتمتعهم بحماية الجماعة الإسلامية ورعايتها ، بشرط بذلهم « الجزية » والتزامهم أحكام القانون الإسلامي في غير الشؤون الدينية ، وبهذا يصيرون من أهل « دار الإسلام » .
فهذا العقد ينشئ حقاً متبادلاً لكل من الطرفين : المسلمين وأهل ذمتهم ، بإزاء ما عليهم من واجبات .

فما هي الحقوق التي كفلها الشرع لأهل الذمة ، وما هي واجباتهم ؟

* * *

(١) انظر : شرح السير الكبير للسرخسي (١/١٤٠) ، والبدائع للكاساني (٥/٢٨١) ، والمغني لابن قدامة (٥/٥١٦) .

(٢) انظر : التشريع الجنائي الإسلامي للشهيد عبد القادر عودة (١/٣٠٧) فقرة (٢٣٢) ، وأحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ، للدكتور عبد الكريم زيدان ص ٦٣ - ٦٦ فقرة (٤٩ - ٥١) .